هنا نص آخر ينشر في «الأخبار» عن الموارنة والعرب المسيحيين بقلم الأب يواكيم مبارك، وخاصة بعد انعقاد «سينودس روما من أجل مسيحيي الشرق». إنّ هذا النص الذي يعود إلى عام 1985 لم يفقد، كما سائر نصوص الأب مبارك، من بريقه وملاءمته للظروف الراهنة ضمن رؤية تاريخية واسعة وجامعة للمصير المسيحي ــ الإسلامي المشترك في المشرق العربي. وقد كتب الأب مبارك هذا النص كمقدمة لإصداره «الخماسيّة الإنطاكيّة /أبعاد مارونيّة» خلال الحرب اللبنانية. وهو عمل موسوعي ضخم تطلّب منه جهوداً جبارة بجمع العديد من النصوص التي تتعلّق بالتاريخ اللبناني وتاريخ الطائفة المارونية والطوائف الأخرى في كل المجالات، مع ما ألهمت هذه النصوص الأب مبارك من تحليلات وتأمّلات تاريخية عميقة واستشرافية للمستقبل في الوقت نفسه. وكان قد سبق للأب مبارك أن نشر في عام 1972 خماسيّة إسلاميّة ــ مسيحيّة تجمع أيضاً نصوصاً هامة، ومنها مقتطفات مما كتبه هو حول

الطائفة المارونية ودورها التاريخي الم

الأب يواكيم مبارك *

إنّ التاريخ الماروني محبوك بالأسئلة التي لن تلقى جواباً في هذا النص، لكن بعضها سيطرح على بساط البحث. فالقضايا المطروحة في هذه المجموعة والمتعلقة بالتاريخ الماروني طُرحت اعتماداً على وثائق قديمة. ليس لهذه الوثائق قيمة علمية عالية إلا لما ندر منها، لكنها بوجه عام هي أعمال وجدانية صادقة.

لا تدّعي هذه المجموعة الموسوعية العلمية. فهي عبارة عن مختارات تضم وثائق منتقاة بحرية تامة ودون تعمد، جُمعت في خمسة أجزاء، من هنا يأتي عنوانها الخماسية. وهي تتلو مجموعة أخرى، الخماسية الإسلامية ـ المسيحية تشابهها في خطها البياني وترمي، في زمن وضعت فيه الرسالة الإنسانية والوعي بالذات على المحك الشاق، إلى المساهمة في بناء الوعي بالذات الذي تمثله الموارنة في مخيّلتهم، وإلى تقوية رسالتهم التي نادوا بها في الكنيسة والعالم منذ العصور الحديثة. انطلاقاً من تلك الفترة، انشغل الموارنة بإحياء تراثهم وجمعه وإظهاره على ضوء المناهج وبفضل الوسائل التي اكتسبوها في أوروبا.

أنتمي إلى جيل الموارنة الأخير الذي تلقى تعليمه الأساسي في الشرق، لكنه أنهاه في أوروبا واستقر فيها. حاولت أن أعيد صدى صادقاً قدر الإمكان، ليس للعلم، بل للفكرة التي ارتسمها أسلافي ما بين روما وباريس لنقاط ثلاث بالغة الأهمية، إذ إنهم لم يفعلوا ما فعلوا، مهما قيل عنهم، خدمة للبابوية أو لفرنسا أو حتى للعلم. فبمساعدة أفضل العقول الكاثوليكية النيّرة في فرنسا وفي أوروبا، اجتهد هؤلاء الموارنة المثقفون، بإصرار وحماسة أثارا أحياناً السخط، إلا لدى من أدرك أهمية الرهان، في المقاصد الثلاثة الآتية:

1. الدفاع عن كمال كنيسة الله الموجودة في إنطاكيا وسائر المشرق وعن كاثوليكيتها ووحدتها.
2. تشجيع حرية شعوب المشرق بإعطائها حصناً منيعاً في لبنان.
3. إلقاء الضوء، بعيداً عن كلّ استيعاب حزبي أو أيديولوجي أو لغوي، على التراث المشترك للحضارة التي ازدهرت حول حوض البحر الأبيض المتوسط.

تلك هي المقاصد الثلاثة، مسكونية وسياسية وثقافية، لـ«الخماسية الإنطاكية /أبعاد مارونية» التي تتطابق مع المقاصد الثلاثة للطبقة المثقفة المارونية منذ القرن الخامس عشر. وإني سأسعى في ما يلي هذه المقدمة إلى توضيح الأمر على نحو أكبر. فليتفضل القارئ بقبول الدوافع الخاصة لهذه المجموعة في زمن البؤس الذي نعيشه.

دوافع خاصة

لقد جاءتني فكرة هذه الخماسية الجديدة وأنا قرب أبناء وبنات إخوتي من الشتات اللبناني، أو حتى قرب أولئك من بين الشبان الذين ولدوا في لبنان وأصبحوا في أميركا أو أوستراليا غرباء عن عمهم وعن جدتهم. لم أشأ معارضة تطورهم الطبيعي أو منعهم من أن يصبحوا ما هم عليه هنالك، حيث استقروا بأمل العودة أو لا، أي مواطنين على نحو تام ومسيحيين ملتزمين كل الالتزام بكنيسة بلدهم المختار، وليسوا لبنانيين مزيفين أو موارنة بسعر خفيض. أقول في اتجاه التطور الطبيعي والضروري لأنه يناقض الولاء المزدوج ذا الطابع الصهيوني. ظننت أنّي أستطيع مساعدتهم في أن يتأهلوا لخدمة مثلى للأوطان والكنائس التي أصبحت اليوم جزءاً منهم، بإهدائهم دلالة عن تراثهم القادر أن يستوعبه أولئك الذين تلقوا تعليماً جامعياً. ظننت أنّ تراث أجدادهم السياسي والثقافي والكنسي يمكنه، إن شاؤوا ذلك، أن يضفي قيمة على مساهمتهم في الصيرورة السياسية والثقافية والكنسية التي هي الآن خاصتهم. لهذا، من البديهي أنّ هذه المساهمة يمكنها أن تطمح إلى نتيجة مزدوجة وأنّها، بمنأى عن أن تُفقِد المعنيين بالأمر تعلقهم بأصولهم أو أن ترسخهم في غياب رفاهية الولاء المزدوج، قادرة على أن ترسي بين أصولهم ومستقبلهم صلة وصل مبدعة لاختلاط الأجناس.

كان هذا حديثي عندما اندلعت الحرب في لبنان واتخذت أبعاد الكارثة التي نعرفها، ورأيت في وسائل الإعلام كيف حثّت مساهمة الموارنة في هذه الحرب على تدفق الآراء الاعتباطية، حين لم يكن يشوبها جهراً الاحتقار والافتراء. حينئذ ظهر غرض جديد للخماسية ضاعف غرضها الأول وتجاوزه نوعاً ما. هل يجب أن أتأسف لهذا؟ ليس بوسعي إلا أن أدوّن الأمر وأعترف بأنّ إعداد مجموعتي الموجهة للشتات اتخذ دوراً أكثر دقة بالنسبة إلى الحرب. لم يكن القصد الردّ على المفترين، بل إظهار تراث المقاومة بالتضامن. وبهدف التصدي لاقتراحات الوفاق المصغرة والمسوّية بسعر رخيص، جاءت المطالبة باللقاء المتمسك «بحق الاختلاف» واتحاده الشخصاني. كان يجب قبل كلّ شيء آخر إظهار أنّ البحث المتحمس عن الهوية المارونية ما تحقق يوماً إلا في ظل اللقاء والاعتراف بالآخر، وأنّ اليوم الذي يفقد فيه الموارنة دور الوسيط بين الديانات والحضارات والشعوب، يفقدون، بالإضافة إلى أفضل سمة من تراثهم، سرّ وجودهم.

جمعتُ من هذا التراث إذاً بعض أشكاله ومظاهره بكلّ تنوعها، وذلك دون أن أخضعه لأفكار معدَّة سلفاً، لكنه معروض لقراءة بثلاثة مستويات، كما سأوضحه في ما بعد. إلا أنّ الحرب قد عجلت المقصد الشخصي الذي ارتسمته، وقد حملتني صنيعة زمن الحرب على أن أنظر إلى الزمن الماروني بحدّة تليق لا بروائع العلم، وإنما بالأعمال النضالية. لهذا عليّ أن أقول كيف أثر هذا الوضع على كتابة هذا العمل ونشره. فإليكم كيف طبع الوضع أثره على محتوى الكتاب.

التاريخ الماروني بمستوياته الثلاثة

إنّ التقديم الإجمالي الذي أقترحه على القارئ ليس تلخيصاً لهذه المجموعة ولا مفتاحاً يفتح كلّ أبوابها. إنّه بالأحرى إضاءة تعكس قراءتي الشخصية والأغراض التي أسلم بها بعمق، ولا سيما أنّ مقاصدي الشخصية تتطابق مع المشروع الماروني الذي يمتد على مدى القرون.

1. جرت العادة أن نتهم الموارنة بسعيهم في «عودة مسيحيي المشرق إلى الوحدة الرومانية» من خلال إسهامهم في إنشاء كنائس متحدة. في الواقع، لا يزال هناك موارنة من جيل أساتذتي، لا بل من جيلي يتباهون بهذا الدور دون أن ينفكّوا عن المطالبة «بأرثوذكسيّتهم المستمرة» وارتباطهم المطلق بكرسي بطرس المقدس في الألفية الأولى والثانية على السواء.

لن أسيء إلى أصدقائي الموحّدين فأعتبر هذا الأمر الملهم الأساسي لمجموعتي في مقصدها المسكونيّ. إلا أني لن أجنّبهم كما لن أجنّب نفسي عناء تتبع هذا المسلك الفكري بطابعه الماروني. ولأنّه يستحيل إعادة صياغة التاريخ بالأفكار، حتى وإن كانت نبيلة جداً، وإنما نتلقاه كما صنعه البشر، لن أجنّبهم عناء النظر إلى هذا المسلك الفكري كما جرى، والسعي إلى فهمه لكي تثمر في خلاصة الأمر أشجاره.

من المؤكّد أنّ «مسكونية» أسلافي تختلف عن مسكونية اليوم. ومع هذا فإنّه بفضل تلك المسكونية استطاع الشرق الشامي أن ينفض عنه دثار خموله العثماني. ولم تعد مشكلة الوحدة المسيحية الإنطاكية، شئنا أو أبينا، تُحسم بين الكنيسة اللاتينية والكنيسة البيزنطية، وإنما داخل الكنيسة الإنطاكية، أي بين الكنيسة الملكية الأرثوذكسية والكنيسة المارونية بصورة رئيسية. لأنّ الأولى اعتنقت جزئياً الطقوس اللاتينية، فيما الأخرى أصبحت بيزنطية كلياً. لكن لا هذه ولا تلك فقدت هويتها المشتركة داخل الشرق الشامي ولا حتى مصيرها المشترك مع الأخرى. لكنّهما لن تلتقيا مسكونياً بالتصالح بين كنيستين إمبراطوريتين حتى وإن اعترف بهما كأخوات، بل تلتقيان بالوجود المشترك داخل الكنيسة الواحدة كمطالبة بالوحدة وطلائع لها.

هل من داع أن أقول إنّ المسكونية التي أسميها «إنطاكية» أو مسكونية «الشرق الشامي» والتي من خلالها أنوي التقارب من وجهة نظر الأب جان كوربون والتعاضد مع فكرة إنشاء «مجمع إنطاكي» التي اقترحها غبطة البطريرك إينياس حازم الرابع، ليست أكثر انسجاماً مع المسكونية الحالية منها مع مسكونية الموارنة التقليديين؟ لكنّي لن أسترسل أكثر في هذا الحديث، كي لا أخرج عن الموضوع المطروح في نصوص هذه المجموعة. كان لا بد من أن أشير إلى ذلك لأبيّن أنّ مشروع وحدة الكنائس الذي خدمه الموارنة منذ حركة الإصلاح المضاد الكاثوليكية (1)، إن أكل الدهر عليه وشرب، فهو لم يكف عن رفض المسكونية السائدة في الوقت الحالي.

أذكّر في هذا الصدد بأنّ «الخماسية الإنطاكية /أبعاد مارونية» تستعيد وتوسع مؤلفاً ظهر بعنوان «إنطاكيات»، جرى تصميمه وإنجازه في إطار مجمع الفاتيكان الثاني. ويمكن النظر إلى هذه الخماسيات على أنها إنطاكيات مكررة، أي تهدف الى الدفاع عن اللقاء بين الكنائس وعن وحدتها ضمن الكنيسة، دفاع

> إن اليوم الذي يفقد فيه الموارنة دور الوسيط بين الديانات والحضارات والشعوب يفقدون سر وجودهم

يختلف عن مشروع آخر للتصالح بين الكنائس. يوصي هذا المشروع الآخر خصوصاً بمصالحة كنيسة الشرق مع كنيسة الغرب، اعتماداً على أنّ الشرق يدّعي امتيازات غير قابلة للتصرف تجاه كنيسة روما، وعلى أنّه لم يبق للموحدين سوى الالتحاق بالأرثوذكسية.

إن لم يجلب مشروع الموارنة الغابر منفعة، فله على الأقل الفضل في إظهار بعض المفارقات التاريخية لدى موحِّدي ومصلحي اليوم الذين يستعيدون إجمالاً مجامع ليون وفلورنسا، مع الفرق أنّ كرسي روما المقدس هو الذي يقدم اليوم كل التنازلات.

لكن لله الشكر، إذ إنّ للإنطاكيين خيراً من هذا يشغلهم وعرضاً أفضل يقدمونه. وبصرف النظر عن كلّ نقاش، فإنّ هذه المجموعة تصب، لا في الجدال بين الكنائس، بل في حضن الكنيسة وفي جزء من كنزها الأكثر عزة وقيمة: صلاتها الكنسية والإفخارستية. إنّ الجزءين الثالث والخامس من هذه الخماسية مكرسان كلياً لها، ويمكن اعتبارهما نوعاً من الالتقاء الإنساني مع الروح القدس. لهذا، فإنّ الغرض المسكوني حصراً لهذه المجموعة هو أن يوصل الصلاة الإنطاكية في ألفها الأول ببساطتها وحرارتها الأولى، المستقلة عن الكنيسة اللاتينية والبيزنطية والمقدمة بثقة واطمئنان لكل مؤمن. هذه الصلاة القائمة على التمجيد وتسبيح الاسم المقدس بتكراره ثلاث مرات، على التراتيل والمزامير والتضرع، هذه الصلاة التي تبلغ أوجها في التكرار الإفخارستي، تمثل العبارة المتفق عليها إجماعياً لإيماننا وطقوسنا عندما كانت إنطاكيا، على الرغم من البدع والانشقاقات، واحدة مع الكنيسة برمتها.

2. لقد أُخذ كذلك على الموارنة مساهمتهم، في زمن الصليبيين وخاصة منذ القرن الخامس عشر، في المشروع التدخلي الأوروبي، وخاصة الفرنسي، في الشرق، وتهيئتهم له جسراً سمح للبعض بالحديث في القرن التاسع عشر عن «فرنسا المارونية».

لقد استحوذ هذا الموضوع على صفحات عديدة من الخماسية. يمكنني في الواقع أن أنصح القارئ الذي يتناول موضوع الموارنة للمرة الأولى أن يبتدئ بما قاله الفرنسيون عن هذا الأمر. وألفت عنايته خصوصاً إلى الجزء الأول، القسم الثاني، إلى كتاب جان دي روك في عهد لويس الرابع عشر. ثم في المختارات الموجودة في القسم السابع من نفس الجزء أشرت إلى ما كتبه لامارتين وبوجولات (Poujoulat) بعد عام 1860، وما كتبه باريس (Barrès) قبل وبعد الحرب العالمية الأولى.

أما في الموضوع الخاص بالعلاقات بين الموارنة وفرنسا، فإني أحيل القارئ خصوصاً إلى التقرير الذي وجهه السفير سفري دي بريف (Savary de Brèves) إلى لويس الثالث عشر. نرى في هذا التقرير أنّ سياسة فرنسا في الشرق، والتي عُرضت في هذا التقرير بأهمية وصراحة لا مثيل لهما، هي سياسية إسلامية وأنّ مسيحيي الشرق، وعلى رأسهم الموارنة، خاضعون لهذه السياسة. فليس هناك من سياسة فرنسية خاصة بمسيحيي الشرق تحدد طبيعة علاقة فرنسا بالباب العالي، بل هو العكس تماماً.

فمع سياسة كهذه بالذات قام الموارنة بأعمالهم، ومع هذه السياسة أنجزوا وصادقوا في القرن العشرين على ما كان يمكن تحقيقه وتكريسه منذ عهد هنري الرابع، على الرغم من نيات هذا ومصالح أو خيانة ذاك. إلا أنّ الموارنة لم يجهدوا في ذلك العصر في سبيل ملك فرنسا ونافار، وإنما لحساب الأمير فخر الدين بالتعاون مع دوق منطقة توسكانا في إيطاليا. بفضل العون العسكري والاقتصادي والثقافي الأوروبي في عصر النهضة، تغلبت الإمارة المعروفة بالدرزية على السلطنة العثمانية وتمكنت من إرساء الاستقلال الذاتي «اللبناني» من إنطاكيا إلى القدس.

نعلم ما آلت إليه الإمارة وكيف أُغرق المشروع في دم الأمير وفي مياه البوسفور. فما بين التاريخ وأسطورة تزيد على التاريخ بلاغة وتعبيراً في قلب روادها، تبيّن هذه الواقعة ثابتة النضال السياسي لدى الموارنة. فالماروني أسير لشريك غير مسيحي، وهو لم يرتبط بأوروبا إلا ليرسخ في الشرق استقلالاً ذاتياً ليس مارونياً، بل وطنياً. بل إنه مشروع الاستقلال الذاتي الأول الذي عرفه الشرق في العصور الحديثة. كان لا بد من الانتظار قرنين من الزمن ومن ضربة بونابرت العنيفة كي تستيقظ مصر الخديوية وتتمرد. لكن في كلتا الحالتين هو النضال نفسه، وهو الذي انتصر على السلطنة العثمانية: ترسيخ استقلال الدولة الأمة في إطار الوحدة والتضامن العربي ضد كلّ سلطة بطابع خلافي أو سلطاني.

وقبل أن أظهر ما يتطابق هذا المشروع السياسي الذي ناضل لأجله الموارنة قبل أي إنسان آخر مع مشروع ثقافي، وكيف أنّ انتماءهم اللبناني هو حجر العروبة الأساسي، وهو الغرض الثالث لهذه الخماسية، هل يمكنني أن أنوه إلى أنّ موضوع هذه المجموعة قد وجد في الحرب غاية محددة؟ ففي صراع الكتل الذي ناب في الشرق العربي عن لعبة القوى العظمى والباب العالي، تتقيد هذه المجموعة المكتوبة باللغة الفرنسية بالمشروع الماروني كأداة اتصال تاريخي. وتقوم به لتخالف إرادة واضحة في الهيمنة، تلك التي تنوي كسر محور بيروت ـ باريس وإتباع لبنان للمدار الإنكليزي السكسوني.

وزيادة للتوضيح، تنوي هذه المجموعة إظهار